الأبطال يولدون مرتين

نحن نمشي في صفحات المجهول، نبحث عن تحقيق أحلام واقعية جار عليها الزمن. وندور تحت أشعة الشمس، نبحث عن ذاتنا، ونستظل بظلها؛ بينما يقف تاريخنا على قمم جبالنا الشامخة يتأمل حاضرنا وهو يحترق، وقد وجد مسافرين يحملون إلى حيث أحلام جيل فائت وأخر قادم. إنها أحلام شعب استيقظ من سباته. حملة رايات، مسافرين إلى المجد والشرف، سلسلة لا تنتهي ولن تنتهي.

عندما تداس الإنسانية بأقدام قذرة وحاقدة، لا تعرف الرحمة، وتسعى إلى التفرقة والحرب، وتزور قانون الله والطبيعة، فلا بد من ثورة وبندقية وبالتالي شهداء؛ حملة الرايات الحمراء، يسيرون بالبؤساء والمظلومين إلى المجد والعزة.

في مسيرة شعبنا الكردي، وتاريخه الحافل بالأمجاد والتضحيات، تتالي قوافل الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم ودمائهم ثمناً لهذه المسيرة، لتحقيق أماني شعبهم في الحرية وتحقيق الذات القومية والإنسانية. لقد سقط الآلاف، بل الملايين على مر العقود السابقة، واستحقوا شرف البطولة والشهادة، ونالوا وسام التاريخ والحياة الأبدية.

اسم على مسمى، متمرد منذ صغره، وثائر في شبابه، ومضحي مع نذير الفجر. واحداً منهم غنى نشيد البداية والنهاية إنه الثائر خبات.

ولد الشهيد خبات عثمان خلو في بلدة تربسبي (عام 1966) التابعة لقضاء القامشلي، في جنوب غربي كردستان، لعائلة وطنية كادحة، هاجرت من قرية كفرزي التابعة لقضاء مدياد عام 1952 بحثاً عن الأمان ولقمة العيش. واستقر بهم الترحال في بلدة تربسبي. وقد كان خبات الابن الأصغر للعائلة المؤلفة من خمسة بنات وثلاث أخوة، إضافة للأب والأم. ترعرع خبات مثل سائر أبناء هذه البلدة على العادات والتقاليد الكردية، وزرع بذور القومية والوطنية في نفسه، كون هذه العائلة كانت لها علاقة وطيدة مع ثورة كردستان الجنوبية في الستينات والسبعينات.

تابع دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدارس البلدة، وفي المرحلة الثانوية بدأت تتفتق مواهبه شيئاً فشيء، وتبلور فكره القومي والوطني والإنساني.

تعلم لغة الأجداد كتابةً ونطقاً وقواعد في هذه المرحلة، وتعلم العزف على الموسيقى الكردية، وكذلك بدأ ينظم الشعر. قرأ للعديد من الشعراء الكرد الأوائل أمثال جكرخوين وملا جزيري وأحمد خاني وغيرهم. وضمن هذه الصيرورة تأثر بشكل ملفت للنظر بهؤلاء الشعراء، ووضع نفسه في خانة ملفتة للنظر، ذات صبغة قومية، حيث تنام إحساسه بالظلم الذي يعاني منه بني قومه في كل أرجاء كردستان. وبدأ يساهم في نشاطات ثقافية وفلكلورية، وإحيائها في مناسبات وطنية وقومية.

في مطلع ثمانينات القرن العشرين بدأ اهتمامه بالسياسة، وأصبحت أفكاره وتبلورت شيئاً فشيئاً من قراءاته لتاريخ الشعوب المناضلة، وتاريخ الشعب الكردي وانتفاضاته. وقد كانت للنكسة التي أصابت ثورة جنوب كردستان، أثراً كبيراً في نفوس الشعب الكردي؛ وهو منهم، واختلاطه بالأحزاب السياسية الموجودة في هذه الساحة، دون الانتساب إليهم.

وفي مطلع عام 1983 توافدت على هذه الساحة طلائع حزب العمال الكردستاني، بدأ الاختلاط معهم. وقام في تلك الفترة بنشاطات لا يستهان بها في جمع المعونة الإنسانية، وتعريفهم بالمنطقة حتى عام 1986. بعد هذه الفترة انضم إلى صفوف الحزب، وبدأت رحلة هذا المناضل في أنشطة الدعاية والتنظيم للحزب.

كان نشيطاً، ماهراً، ذكياً. شجاعاً في تصرفاته وسلوكه في كافة المجالات. وبدأ يتغير يوماً بعد يوم حتى جسد كل خصائص الحزب في شخصيته وفكره. تقلد مهام ومسؤوليات عديدة في المنطقة، وكان رمزاً ومؤهلاً لهذه المهام.

قام بزرع نواة الحزب والتنظيم مع رفاقه الآخرين؛ وأغلبهم الآن شهداء. التفت جماهير واسعة حول الحزب من خلال نشاطاتهم وفعالياتهم الوطنية والقومية. نشروا إيديولوجية الحزب وأهدافه في كل نواحي المنطقة؛ وكل حي يشهد له على ذلك.

قال ذات يوم" الآن أتممت مهمتي هنا، أنا مقبل على عملٍ أخر، أجد نفسي مسؤولاً وأهلاً بأن أكون أحد كيريللا هذا الوطن في ماردين؛ مسقط رأس أبائي وأجدادي. وكم أنا مشتاق بأن أكون هناك اليوم قبل الغد".

حمل سلاح الحرية وراية كردستان، ولكن القدر كان بانتظاره في صيف عام 1990، استشهد في معركة بطولية على ذرى جبال جودي الشماء، ضد المستعمر التركي، في طريقه إلى ماردين. هكذا انتهت ملحمة هذا المناضل الكبير؛ فالأبطال يولدون مرتين. وبدأت أنشودة البداية والنهاية.

من لا يعرفه، ومن ينساه؛ إنه الشمس المهد، وجه صدره للغمامة المظلمة. يلمع نوره ليشق جبهة الظلام والليل الموحش، حامل الصواعق الكاشفة. ملزم حتى النهاية، ليصل إلى الذروة، ليشكل أنوار مستقبل الزمان. كيف لا يحن إلى الأبدية؟ وكيف لا يسعى شوقاً إلى خاتم الزواج؟ وإلى دائرة الدوائر(خاتم الخطبة)؟ حيث يصبح الانتهاء عودة إلى الابتداء. لم يجد يوماً امرأة لتكون أماً لأبنائه؛ إلا المرأة التي أحبها وهي كردستان، لأنه أحبها الحب الأبدي... قال" أحبك أيتها الأبدية".

هب كريح كسيح على نسيج العناكب، طهر مغاور الموت المتعفنة القديمة، وسخر من الموت. نثر الكلمات المتداعية، وجلس مسروراً حيث دفنت آلهة الزمان المنصرفة.

من لا يعرفه، ومن ينساه؟ اسأل نجمة الثريا عنه، ستقول لك" كان يسهر معي حتى الصباح". اسأل الليل عنه سيقول" كان صاحبي". اسأل المطر سيقول" كان مرافقي". اسأل البرد سيقول" كان منافسي". اسأل الجوع سيقول" كان منكري". اسأل الورد ستقول" كان عاشقي". اسأل الطفل سيقول" إنه معلمي". اسأل الجبال ستقول" كان حارثي". اسأل الطمبور عنه سيقول" كان وتري". اسأل الشعر عنه سيقول" كان قافيتي". اسأل التاريخ عنه سيقول" كان كاتبي". اسأل الحدود عنه ستقول" كان الطير الذي يرفرف فوق سمائي". وإذا سألت أمه ستقول" كان اصغر أبنائي وحلمي".

في مسيرة تاريخ شعبنا عظماء ومناضلين كثيرين؛ وعظمة الإنسان ليس فيما وصل إليه، بل فيما كان يحمل من أفكار وأهداف ومعاني للقيم الإنسانية وتغيير في حياة شعوبهم أيضاً. كان الشهيد خبات. رغم صغر سنه النضالي في صفوف الحزب وفعالياته، مفعماً بالحيوية والنشاط الدؤوب، دون كلل أو ملل، بحراً هائجاً وعاصفة لا يهدأ له بال؛ ومن لا يشهد على ذلك حتى أعدائه ومناهضيه.

الشهادة عظمة، وكل عظيم جميل. سعى الشهيد خبات إلى الجمال، فكان متعدد المواهب، سريع البديهة، متفتح البصر والبصيرة، متقد الذكاء. يسبر الأغوار طلباً للحقيقة وإثباتاً للهوية في كل مكان حل فيه، دون أن يبالي بما يعترضه من مصاعب، لأنه كان يدرك إن الحياة ما هي إلا الموزون والميزان الوازن. فويل لكل حي يريد أن يعيش دون نضال من أجل هذه الحياة.

عندما كان يجلس في مجالس القرويين ضمن نطاق فعالياته، أحبه الناس في كل مكان حل فيه. يبدأ خطابه السياسي مرشداً واعظاً، كان الحكيم، يلقن سامعيه كلاماً رقيقاً هادئاً، تسر له الأبدان. يزرع الأمل والبهجة في النفوس. يزيل عن وجوههم الأقنعة والآثار القديمة التي حفرها الماضي القذر.

كان الشهيد خبات مثالاً للنضال بين أبناء عمومته، شامخاً في أخلاقه، نزيهاً في تصرفاته، وأميناً على مسؤوليته الحزبية والنضالية. لم يكن يوماً من الأيام مساوماً على قيمه القومية والوطنية، يكره الليبرالية. كم مرة وفي مناسبات عديدة ناشد من حوله قائلا:

ـ إني أراكم هياكل، عظام متحركة يا من أصابكم العدو بالعقم. أنتم مستغربون في غربة لا قرار لها، لقد أثقل بكم الأحمال، فأزداد ثقلكم ثقلاً وزادت ثقافة العدو من ثقلكم حتى بات أحدكم لا يقدر على المسير خطوة نحو الحرية. وا أسفاه إلى أي ذروة ترتقون، وإلى أية هاوية تتجهون.

أنتم غرباء عن هذه الدنيا، لذلك تستحقون سخرية الأقذار والأوغاد؛ وأن الهواء الفاسد يهب بلا انقطاع حولكم وحول مآدبكم، لأنكم مشبعين من أفكار الأعداء الدنسة وأكاذيبهم وخداعهم.

عليكم أن تبدءوا بالمسير نحو الأمام. أما ترون الفجر ينسحب على جبالنا الشماء، وقد أهتاجه الشوق والحنين، وأنتم تشعرون بظمأ شديد من جر الأقذار وزمن الأوغاد. هلموا بكل عزيمة لنجلس على جباههم. إنهم جبناء لا كما تصورتم يا أبناء قومي. لنهتف بالعدل ولتظل رايتنا عالية خفاقة، ولنثبت للعالم أجمع أننا بشر؛ ولا مساواة بين البشر...

قالوا" بأن الشعراء كثيراً ما يكذبون"، فهل كان الشهيد خبات منهم؟ لقد قال واثبت:

ـ أنا من الأمس القديم، ولكن فيَّ شيئاً من الغد، وبعض من الآتي البعيد، فقد أتعبه الشعراء الأقدمون وبعض المبتذلون؛ لم تنفذ أفكارهم إلى أغواري.

لكنه كان يحب جكرخوين. كان يتخيل أن طريقاً سوياً يؤدي إلى المعرفة، وإن هذا الطريق لا ينكشف إلا لمن يدركون الأمور بالعلم. لا نؤمن إلا بالشعب وحقوقه. والشعراء جميعهم يعتقدون أن الجالسين على منحدر جبل مقفر ينصت إلى السكون يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الأرض والسماء؛ وأن بين الأرض والسماء أمور كثيرة لا يحلم بها إلا الشعراء. والحق إنهم منجذبون نحو العلياء وإلى مسارح النجوم. فقد غنى شاعرنا خبات لمسقط رأسه وحارته ونهره وبساتينه، ومدح العظماء وذم التعساء والأوغاد والأعداء. غنى للقمر والشمس وبارك الأرض والمطر والثلج وناشد النسيم والندى. عشق الورد والجبل ونادى بالحرية والبندقية، وبكى للدم والشهيد. وما زال صوته يسير كسحابة الربيع، تمطر في كل مكان لينبت الزرع من جديد.

ليست الأعالي ما تخيف، بل الأعماق. كان يقول:

ـ الخطر المحدق بالمناضل هو انحداره نحو الأسفل ونظره نحو الذرى. على المناضل دوماً أن يكون يقظاً ودقيقاً في حساباته حتى النهاية، لأن الغلطة الواحدة هي بمثابة أو ربما تكون قاتلة؛ لأنك لست وحدك في الميزان. العدو يتربص بك في كل اتجاه، حينها لا تجد نفسك إلا تحت الأمر الواقع، لأن الزمان لا يعود أدراجه. ذلك ما يثير غضب الإرادة، فهناك صخرة لا طاقة للإرادة فيا، وهذه الصخرة ما هي إلا الآمر الواقع. حذاري ثم حذاري إن يقع المناضل تحت هذه الصخرة.

هكذا تكلم الشهيد خبات، قال الكثير، وفعل الأكثر. فقد كان الشغل الشاغل لأهل منطقته في تلك الأيام. لم يكن كذلك فحسب، بل كان فناناً يسعى للارتقاء دوما، وقد غنى للمجد والنور، للحب والعشق، للوطن والتعساء، لامه وأطفال المستقبل. فقد قال ذات مرة في أحدى أمسيات الشتاء الثقيلة:

ـ كم أحبك يا طمبورتي لأنك الوحيدة التي تفهميني. أوتارك تعشق أنامل أصابعي، كما يحب الكيريللا البندقية، مثل حب ممو لزين وفرهاد لشيرين وشفان لبيريفان.

غنى للوطن أنشودة النضال، وللجيل صموده. ومن منا لا يذكر أغنية ماردين(ماردين يا ماردين يا عروسة الوطن...) فقد غنى أنشودته الأبدية في ذرى جبال جودي، واحتضنه الجبل إلى الأبد، لأن الأم الحنونة لفت ابنها بين شعابها ووهادها إلى الأبد، ليبدأ الفجر ببزوغ نور المحبة والحرية. وما زالت الرياح الشرقية تهب منه، لتشكل سحابة المطر، وتنزل حباتها على الأرض الغنية، لتنبت كل ربيع زهوراً تزين صدور الفتيات ليبدأ الحب من جديد. قال أنشودته الأبدية:

ـ "من يدفنني... من يحبني بعد... إلا الأيادي الحارة... إلا القلوب المتقدة... أنا المحتضر المحتاج إلى كف أمي ورفاقي، أنا الثائر تأكلني الحمة الخفيفة، وتهب عليَّ رياح الشرق. أودعكم والتحق بالقافلة... يا من تأتون بعدي حافظوا على الوديعة، هذه وصيتي..." خبات.

رفاق السلاح.